قراءات إفريقية
مجلة ثقافية فصلية محكمة متخصصة في شؤون القارة الإفريقية
السنة الثالثة عشر / العدد ١٩ / يوليو ٢٠٢١ - ذو القعدة ١٤٤٢هـ

العنصرية العلمية وأيديولوجية الشخصية الإفريقية

دور الديني في التحولات الاجتماعية في افريقي

واقع المنصات الرقمية والخدمات المالية في إفريقيا جنوب الصحراء

ابن فضل الله العمري وإسكاتولوجيته

تحديات الرقمنة:

اقترابات فشل الدولة:

Scanned by CamScanner

الاستراتيجية ٤

تسوية النزاعات في إفريقيا

دور الدين في التحول الاجتماعي في إفريقيا

أ. أحمد محمد أحمد إسماعيل - السودان

ابن فضل الله العمري وإسهاماته في دراسة تاريخ إفريقيا

أ.د. بشار أكرم جميل - العراق

دراسات سياسية ٣٢

اقترابات فشل الدولة:
دراسة في الحالة الإفريقية

أ.د. عبد القادر عبد العالي - الجزائر

قراءات تنموية ٤٤

تحديات الرقمنة:
جنوب إفريقيا أنموذجًا

د. هويدا محرز - مصر

واقع المنصات الرقمية والخدمات المالية في إفريقيا جنوب الصحراء ٥٨

أ. محمد زكريا فضل - إفريقيا الوسطى

الأبعاد الصحية لمجتمع الأمهات النفاسية بالقارة الإفريقية بين ملامح الواقع وآلية التدخل التنموي

د. محمد فرج عبد العليم علام - مصر

العنصرية العلمية للأنثروبولوجيا وأيديولوجية الشخصية الإفريقية خلال القرن ١٩

أ. ناصر كرم رمضان - مصر

المشهد الإفريقي ١٠٢

تحرير المجلة

تقارير إفريقية ١١٨

دور الكنيسة القبطية المعاصر في إفريقيا..
قراءة وصفية

د.جوزيف رامز امين رزق الله - مصر

TRANSLATION ١٣٢

تحرير المجلة

العدد ٤٩ السنة السابعة عشرة
يوليو ٢٠٢١م - ذوالقعدة ١٤٤٢هـ

Scanned by CamScanner

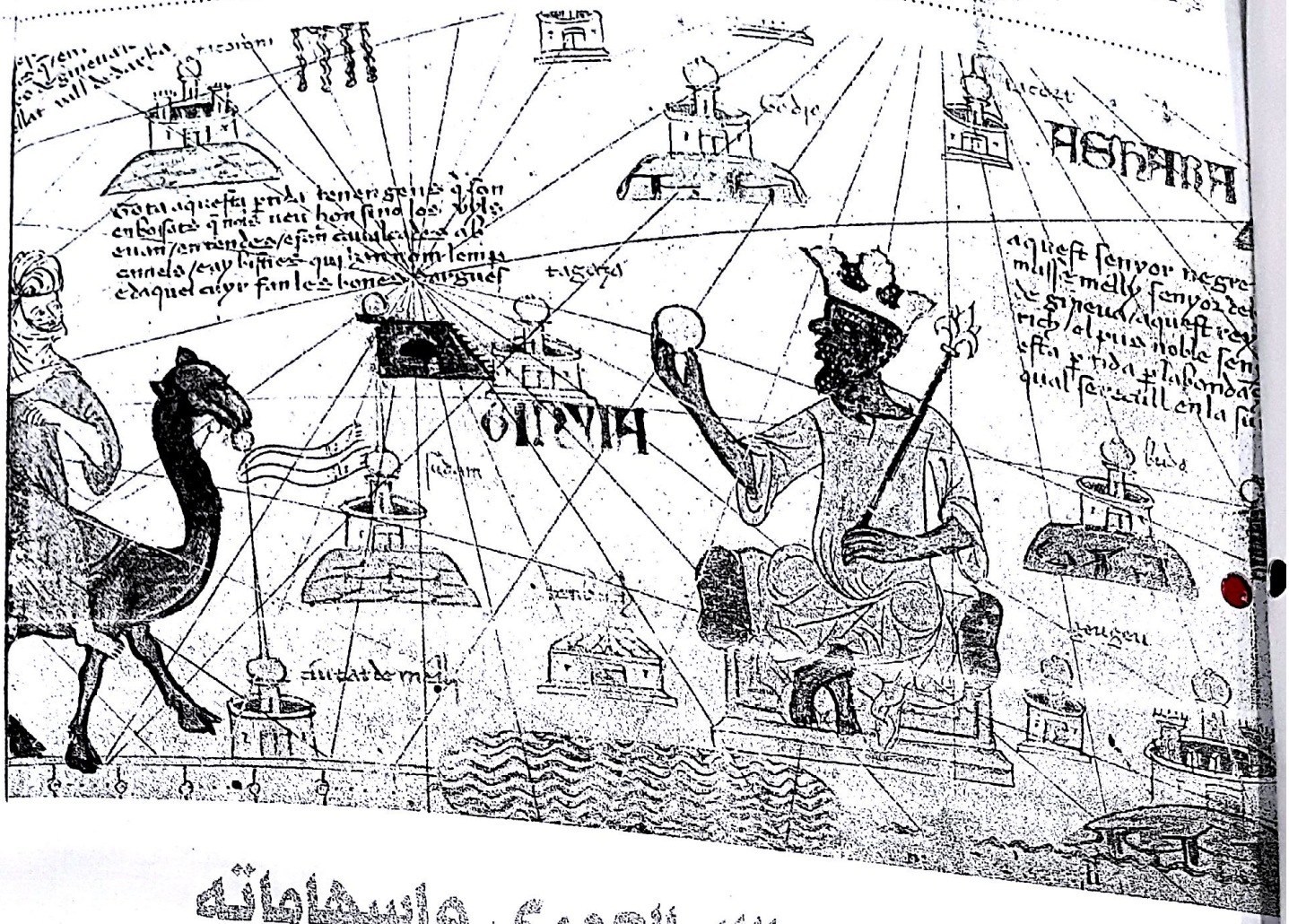

ابن فضل الله العمري وإسهاماته في دراسة تاريخ إفريقيا

أ.د. بشار أكرم جميل

جامعة الموصل/ كلية الآداب- جمهورية العراق

لم يكن اهتمام المؤرخين بتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء في بادئ الأمر بالقدر الكافي، وذلك لقلة معلوماتهم عنها، وبُعدها عن مركز الخلافة الإسلامية، سواء في دمشق أو بغداد، فكانت المعلومات المعروضة في كتبهم بسيطة وخجولة- تمثلت في تحديد موقع المنطقة الجغرافي وأصول سكانها، فضلاً عن التأكيد على وحشية البعيدين منهم عن الصحراء الإفريقية، ولا سيما الساكنون في الغابات الاستوائية- كالتي جاءتنا في مؤلفات الاصطخري وابن حوقل.

Scanned by CamScanner

إلا أن تذليل العقبات أمام التجار الراغبين بالعمل التجاري بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان زاد من اطلاع الناس على المنطقة، ومن ثم وصلت معلومات أوسع إلى أسماع مؤرخينا، مما جعل الصورة تبدو أوضح لدى القارئ المسلم، ولاسيما في عهد المؤرخ والجغرافي أبو عبيد البكري، والذي فصّل تاريخ المنطقة بشكلٍ جيّد في كتابه (المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب)، وهو جزء من موسوعته (المسالك والممالك)، ليتبعه بعد ذلك العديد من الجغرافيين والمؤرخين في تدوين تاريخ المنطقة، أمثال الشريف الإدريسي في كتابه (نزهة المشتاق)، والزهري في كتابيه (الجغرافيا) و(صورة الأرض)، وكتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي، و(الروض المعطار) للحميري.

وما إن حل القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين حتى جاءت كتابات مؤرخيهما واضحة وكبيرة عن المنطقة، كتلك التي دوّنها ابن بطوطة في رحلته إلى المنطقة، وكتابات ابن خلدون وابن فضل الله العمري والقلقشندي.

إن القضية البحثية التي يرغب هذا المقال بمعالجتها تتمثل في: بيان دور ابن فضل الله العمري في نقل المعلومات التاريخية عن إفريقيا جنوب الصحراء، ومدى دقة تلك المعلومات التي أصبحت مرجعاً للكثير من المؤرخين الذين جاؤوا بعده، ولاسيما القلقشندي، الذي نقل جُل المعلومات التي وردت في كتاب (مسالك الأبصار).

ويُعد ابن فضل الله العمري واحداً من المؤرخين المسلمين البارزين في عصره، وذلك من خلال تأليفه لعدة كُتب، إلا أن الأوسع والأهم منها هو موسوعته التي سماها (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)[1]، وقسمها إلى أبواب عّدة، اختلف من أراد تجميعها وتبويبها في عدد مجلداتها، فهناك من قال إنها تتألف من عشرين مجلداً[2]، وهناك من قال إنها تتألف من أكثر من عشرين مجلداً دون تحديد العدد[3]، إلا أن محقق الجزء الذي بين أيدينا يشير إلى أن (مسالك الأبصار) يتألف من سبعة وعشرين جزءاً، موزعة بين دور المخطوطات المختلفة[4]، بينما يشير كراتشوفسكي إلى أن أحمد زكي باشا قد أشار في مقدمة الجزء الذي حققه إلى أن الكتاب يتألف من اثنين وثلاثين جزءاً[5].

يتناول البحث تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء في كتابات المؤرخ ابن فضل الله العمري، والتي أطلق عليها المؤرخون والجغرافيون المسلمون «بلاد السودان»، من خلال المحاور الآتية:

١- التعريف بابن فضل الله العمري.

٢- مصادر ابن فضل الله.

٣- إفريقيا في كتابات ابن فضل الله.

٤- خاتمة.

اتبعت في هذا البحث المنهج التاريخي الوصفي، الذي اعتمد على عرض الوقائع التاريخية ووصفها، وتحديد البعد التاريخي لكلٍ منها.

---

(١) شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، (القاهرة: ١٩٦٦م)، (٣٥٤/١)؛ محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، (بيروت: ١٩٧٣)، (١٥٩/١-١٦٠)؛ عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط٤، (بيروت: ١٩٨٤م)، (٧٦٣/٣).

(٢) الكتبي، فوات الوفيات، (١٦٠/١).

(٣) العسقلاني، الدرر الكامنة، (٣٥٤/١).

(٤) أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، (أبو ظبي: ١٤٢٣هـ)، ص١١.

(٥) أغناطيوس يوليانوفتس كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، مراجعة: ايغور بليايف، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، (موسكوفا: ١٩٥٧م)، (٤١١/١).

Scanned by CamScanner

١- التعريف بابن فضل الله العمري:

ولابد لنا في بادئ الأمر أن نتعرف على شخصية ابن فضل الله العمري، فهو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله بن مجلي بن دعجان بن خلف بن أبي الفضل نصر بن منصور العمري[١]، المولود في مدينة دمشق سنة ٧٠٠هـ/١٣٠١م، والتي اتفق أغلب المؤرخين على تحديدها باستثناء الصفدي الذي أشار إلى احتمالية أن تكون الولادة سنة ٧٠١هـ/١٣٠٢م[٢].

نشأ ابن فضل الله العمري في أسرةٍ تولى الكثير من أفرادها منصب صاحب ديوان الإنشاء لأكثر من قرن تقريباً، مما يوضح أنه نشأ وتعلم في أحضان ديوان الإنشاء، وهو ما يفسر سهولة اطلاعه على الوثائق الرسمية للدولة[٣]، وذلك الأمر ربطه بالدواوين، فعمل في ديوان الإنشاء مع والده الذي كان كاتباً للسر في دمشق أيام سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية[٤].

ويصف المؤرخون ابن فضل الله العمري بالقول بأنه: «القاضي الفاضل البليغ المفوّه الحافظ حجة الكتّاب، إمام أهل الأدب، أحد رجالات الزمان كتابةً وترسلاً، يتوقد ذكاءً وفطنة، ولا يُعتقد أن بينه وبين القاضي الفاضل مَن جاء مثله، فقد رزقه الله أربعة أشياء قلّما تجتمع في غيره، هي الحافظة والذاكرة والذكاء وحسن القريحة في النظم والنثر، وكان ذا معرفة دقيقة بتاريخ المغول من لدن جنكيزخان وهلم جرّاً، وإماماً في معرفة الممالك والمسالك، وخطوط الأقاليم ومواقع البلدان»[٥].

ومن أبرز شيوخ ابن فضل الله العمري الذين تتلمذ عليهم: كمال الدين ابن قاضي شهبة، الذي قرأ عليه العربية، كما قرأ العمري على والده القاضي محيي الدين أبي الفضل العروض والأدب، ثم على قاضي القضاة شمس الدين بن مسلم، وأبي عبد الله شمس الدين محمد، الذي سمع منه العربية في دمشق، وبنت القاضي محيي الدين يحيى بن أحمد الملقبة بست القضاة، فضلاً عن علاء الدين علي بن المظفر الوداعي الكندي الدمشقي المتوفى سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م، والذي درس عليه ابن فضل الله العمري العروض والأدب، وقيل إنه حدث بالإجازة عن الأبرقوهي[٦]، وأخذ العمري الأصول عن الأصفهاني، والنحو عن أبي حيان، والفقه عن البرهان الفزاري وابن الزملكاني وغيرهما[٧]، ولم يقتصر الأمر على هؤلاء، فللعمري شيوخ كثر تتلمذ على أيديهم ودرس علوماً مختلفة[٨].

وشغل العمري وظائف عدة، إلا أن أهمها وظيفة

---

(١) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، (القاهرة: د/ت): (٥٢١/٢).

(٢) ابن الوردي، تتمة المختصر، (٥٠٢/٢)؛ صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، (بيروت: ٢٠٠٠م)، (٢٥٤/٨).

(٣) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٩٨٨م)، ص١٤.

(٤) حسن محمد عبد الهادي، ترجمة ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى)، بحث منشور في مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية، ٢٠١٠م، مج١٢، ع١، ص٨٣. ومحمد بن قلاوون: هو السلطان الناصر أبو الفتح محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون، حكم مصر لثلاث مرات حتى توفى سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م. ينظر: ابن شاكر، فوات الوفيات، (٣٥/٤).

(٥) العمري، مسالك الأبصار، (٩/١٩).

(٦) شمس الدين أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الشافعي، ذيل تذكرة الحفاظ، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٩٩٨م)، ص٣٧.

(٧) عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، (دمشق– بيروت: ١٩٨٦م) (٢٧٣/٨).

(٨) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، ذيل تاريخ الإسلام، ص (٩٢-٩٣).

Scanned by CamScanner

«ديوان الإنشـــاء» بالشام[1]، كما شغل منصب «كاتب الســـر» بمصر نيابةً عن والـــده، إلا أن خلافاً وقع بينه وبين الســـلطان المملوكي تسبب في إبعاده عن المنصب وسجنه مدة ســـبعة أشهر ونصف، وأفرج عنه من ســـجن بقلعة الجبل[2]، وعاد بعدها لتولي «كتابة الســـر» في دمشق بعد أن شفع له أخوه علاء الدين لدى السلطان[3]، وقال حينها متغنياً بمصر:

لمصرَ فضلٌ باهرٌ بعيشها الرغد النضر
في كلّ سفح يلتقي ماءُ الحياة والخضر[4]

أما وفاته؛ فكانت يوم عرفة سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م بعد إصابته بالطاعون، وصُلي عليه في جامع دمشق، ودُفن في مقبرة جبل قاسيون[5].

٢- مصادر معلومات ابن فضل الله:

مصادر العمري عن بلاد السودان كانت تستند إلى شـــخصيات لم يذكر عنها ســـوى اسمها، كأبي عبدالله السلالجي، الذي ينقل معلوماته للعمري عن الشـــيخ الثقة عثمان الكانمي، وهو أحد أقارب ملك تلك البلاد[6]، كما كانت المصادر الأولية السابقة له والمعاصرة مصدراً لمعلوماته، فقد ذكر في أكثر من موضع أنه نقل عن ابن ســـعيد المغربي، كما أشار إلى أن الســـلالجي نقل له ما كتبه القاضي محمد

(١) الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية (بيروت: د/ت)، ج٤، ص١٥٢.

(٢) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٩٩٧م)، ج٣/ ص٢٧٥.

(٣) الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨/ ص٢٧٣.

(٤) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٤١٨هـ)، (٢/٢٢٠).

(٥) تقي الدين محمد بن هجرس بن رافع السلامي، الوفيات، تحقيق: صالح مهدي عباس و بشار عواد معروف، (بيروت: ١٤٠٢هـ)، (١١٢/٢).

(٦) العمري، مسالك الأبصار، (٩٦/٤).

نطاق البحث لدى العمري كان يشمل كل منطقة إفريقيا جنوب الصحراء (بلاد السودان)

بن عبد الملك المراكشـــي في كتابـــه (المعجم)[7]، فيما اعتمد في بعض معلوماته عن بلاد النوبة على شخص اســـمه أحمد بن المعظمي، الذي لم يعطنا أي تفاصيل أخرى عنه[8].

فيما أشـــار العمري إلى أن بعض معلوماته عن مملكة مالي كانت نقلاً عن الشيخ الثقة الثبت- كما سماه- أبي عثمان سعيد الدكالي، والذي قضى في عاصمتها (بيتي) خمســـاً وثلاثين ســـنة[9]، كما أن معلوماتـــه الأخرى عن مملكة مالي جاءت من خلال لقائه بالأمير أبي الحسن علي ابن أمير حاجب، وهو والي مصر والقرافة[10].

والمتتبع لمعلومات العمـــري عن مملكة مالي، والتـــي حصل عليها من ابـــن أمير حاجب، يلاحظ غزارة تلـــك المعلومات وســـعتها، كونها جاءت من مقابلات ابن أمير الشـــخصية مع منســـا موســـى خلال زيارته للقاهرة وهو في طريقه للحج، فجاءت المعلومات موثقـــةً وأكثر مصداقية، كونها نابعةً من مصادرها الأصلية، كمـــا أن تلك المعلومات تلقاها العمري بشـــكل مباشر ودون وســـيط من ابن أمير

(٧) المصدر نفسه، (٩٦/٤).

(٨) نفسه، (١٠٣/٤).

(٩) العمري، مسالك الأبصار، (١٠٩/٤).

(١٠) العمري، المصدر نفسه، (١١٨/٤).

Scanned by CamScanner

حاجب خلال لقائه به.

ومن بين المصادر المهمة، التي أكدت معلومات ابن أمير حاجب لابن فضل الله العمري، رجل من رجالات الدولة في مصر، وهو أبو العباس أحمد بن الجاكي المهمندار[1] والذي أفاد ابن فضل الله العمري حينما نقل له استقباله لمنسا موسى عند وصوله مصر، فكانت معلوماته وافية عن ذلك السلطان وبلاده[2]، فضلاً عن ذلك فقد أخذ العمري معلوماته عن مملكة مالي من الفقيه العلامة أبو الروح الزواوي، والذي هو الآخر كان من بين الذين التقوا منسا موسى خلال رحلته.

والأمر الجدير بالذكر هنا هو: أن ابن فضل الله العمري رجح رأي الدكالي على رأي ابن أمير حاجب والزواوي، ولا سيما المتعلق بمساحة مملكة مالي، فقد ذكر كلٌّ من ابن أمير حاجب والزواوي- عن السلطان موسى منسا- أن طولها سنة، فيما قال الدكالي إن طولها أربعة أشهر وعرضها مثله، وأشار إلى ترجيحه لرأي الدكالي؛ لأن موسى منسى ربما عظّم شأن مُلكه[3].

وفي ختام كلام العمري عن دولة مالي يشير إلى أن الإمام أبا عبد الله محمد بن الصّائغ الأمويّ أبلغه أنه سمع من الوزير أبي عبد الله محمد بن زانغوه معلومات عن رحلته وتيهه في البحر المحيط، ومن ثم وصوله إلى الساحل وعودته باتجاه البر، وبذلك يصبح الإمام أبو عبد الله مصدراً آخراً من مصادر معلومات العمري[4].

تناول العمري في مؤلفاته، ولاسيما موسوعته (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، وكتاب (التعريف بالمصطلح الشريف)، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، والتي أطلق عليها كبقية المؤرخين والجغرافيين المسلمين مصطلح «السودان».

ويشير العمري في كتابه (مسالك الأبصار) إلى السودان حينما حدد حدود ممالك المسلمين بقوله: «ممالك الإسلام واقعة- بحمد الله- في أحسن المعمور شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، لأنها لا تنتهي إلى غاية الحرارة المفرطة ولا إلى غاية البرد المفرط، إلا فيما قبل، ولا يخرج عن حدّ المستطاب... فغاية معمور الجنوب مساكن السودان من عباد النيران والأصنام، بما تغلغل من جزاير الهند وأطرافه، والنصارى بأطراف الحبشة، وعباد الحيات والهمج في سودان المغرب جنوب غانة»[5].

وفي معرض حديثه عن ممالك المسلمين في بلاد السودان؛ يتناول تلك الممالك الواقعة على النيل مبتدئاً بمملكة الكانم ثم بلاد النوبة، ففي الكانم يشير العمري إلى حكام البلاد ومجلسهم وملابسهم، واصفاً احتفالهم بعيدَي الفطر والأضحى مع رعيتهم، كما تطرق إلى مزروعات تلك البلاد، والتي يأتي في مقدمتها الأرز والقمح والذرة، فضلاً عن التين والليمون والرطب واللفت والباذنجان[6].

ويشير العمري إلى أن سكان الكانم كانوا يستخدمون نوعاً من الأقمشة يُسمى (دندي) كعملة، كما استخدموا الودع والخرز والنحاس المكسور والورق، إلا أن جميعها تُسعّر بسعر ذلك القماش وتُقاس عليه، فيما ينقل عن ابن سعيد المغربي أن في المناطق الواقعة جنوب الكانم يوجد صحاري وغابات فيها أشخاص كحيوانات الغول، لها سرعة

(١) المهمندار: هو الذي يتولى استقبال الرسل والعربان الواردين على السلطان، وينزلهم دار الضيافة ويتحدث في القيام بأمورهم. ينظر: أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، ط١، (بيروت: ١٩٨٧م)، (٢٢/٤).

(٢) مسالك الأبصار، (١٢٢/٤).

(٣) نفسه، (١٢٦/٤).

(٤) نفسه، (١٢٧/٤).

(٥) المصدر نفسه، (٣٤/٣).

(٦) نفسه، (١١٢/٤).

Scanned by CamScanner

عالية تسابق سرعة الفارس، وهي مؤذية للبشر.

ويستمر في نقل المبالغات التي يوردها ابن سعيد، ذاكراً أن بلاد الكانم ينبت فيها يقطين، وأن حجم اليقطينة الواحدة يكفي ليكون مركباً يعبر فيه الناس نهر النيل، إلا أن العمري ينقل عن ابن سعيد قوله بعد ذلك النص: «والعهدة على الراوي»[1].

وعند الحديث عن انتشار الإسلام في الكانم؛ يشير إلى أنها بلاد قحط وشظف عيش ويستولي عليها سوء المزاج.

وينسب العمري انتشار الإسلام هناك إلى رجل يُدعى (الهادي العثماني)، ادعى أنه من نسل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ليصبح الحكم بعدها في الكانم لجماعة ادعت أنها من نسل سيف بن ذي يزن، والذين تبنوا المذهب المالكي خلال حكمهم للبلاد، وتميزوا بالتزامهم الديني وعنايتهم بطلبة العلم لدرجة أنهم تبنوا مسألة بناء مدرسة للمالكية في القاهرة[2]، إلا أنه يعود في كتابه (التعريف) للحديث عن حاكم البرنو وعن حاكم الكانم، فيقول عن صاحب البرنو- كما سماه-: «بلاده تحد بلاد ملك التكرور في الشرق، ثم يكون حدها من الشمال بلاد صاحب إفريقيا، ومن الجنوب الهمج، ورسم المكاتبة إليه وإلى صاحب الكانم- الذي قال عنه إنه من بيت قديم في الإسلام وهو على المذهب الشافعي-: أدام الله تعالى نصر الجانب الكريم، العالي، الكبير، العالم، العادل، الغازي، المجاهد، الهمام، الأوحد، المظفر، المنصور، عز الإسلام»[3].

أما ما يتعلق ببلاد النوبة؛ فقد حدد موقعها على ضفتي النيل، وهي تلي مصر من جنوبها، ووصف قراها بأنها «قليلة الخير والخصب يابسة الهواء»، وهو الأمر الذي لم يقنع الأيوبيين في مصر للسيطرة عليها خلال حكمهم لمصر، ولا سيما بعد ملاحقتهم للسودان الذين حاربوا صلاح الدين الأيوبي، فغير الأيوبيون وجهتهم واتجهوا نحو اليمن بدل النوبة.

وديانة النوبة هي النصرانية، ويورد العمري اسم «لقمان الحكيم» و«ذو النون المصري» بعدّهما من النوبة، مشيراً إلى حكمتهما سارداً بعض سيرتهما[4].

إن أول حكم إسلامي لبلاد النوبة كان من قِبل بني الكنز[5] الذين أعلنوا إسلام البلاد وانتهاء المعاهدة التي كانت قد عُقدت بين النوبة والمسلمين في مصر، والتي كانت تُسمى «معاهدة البقط»[6]، والتي كان يرسَل بمقتضاها إلى مصر ٣٦٠ رأساً من الرقيق، وعلى الرغم من أن النوبة وعاصمتها دنقلة أصبحت في عهد المماليك تحت حكم رجل مسلم من بني الكنز؛ فإن وجود المسلمين فيها قديم ويعود إلى بداية عقد المعاهدة في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، ولديهم مسجد جامع في العاصمة ينزل فيه الغرباء، ويرسل إليهم

---

(١) المصدر نفسه، (٤/٩٦).

(٢) نفسه، (٤/٩٧).

(٣) العمري، التعريف، ص (٤٦-٤٧).

(٤) العمري، مسالك الأبصار، (٤/٩٩-١٠١).

(٥) بني الكنز: هم أفراد قبيلة ربيعة الذين سكنوا في بلاد النوبة، وقد تلقب حكام هذه القبيلة بلقب «كنز الدولة» منذ عهد أبو المكارم هبة الله، إذ لقبه الحاكم بأمر الله الفاطمي بهذا اللقب. انظر: المقريزي، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق: فردناند واسطون، طبعة جوتنجن، (ألمانيا: ١٨٤٧م)، ص٤٤.

(٦) البقط: هو مصطلح يُطلق على ما في الأرض من بقل وعشب، وجمعه بقوط، وهو دال على بعض الشيء. انظر: ابن منظور، لسان العرب، (٧/٢٦٣)، ويعرّفه المقريزي بأنه: ما يُقبض من سبي النوبة في كل عام، ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم. انظر: المواعظ: (١/٢٠٠)، والبقط: لفظ يرجع في أصول استخدامه إلى مفهومين: الأول يوناني وهو Pactum، ومعناه الاتفاق والموادعة، والثاني مصري قديم، ومعناه الضريبة التي تدفع عيناً. انظر: عبد الرزاق ذنون الجاسم، العلاقات السياسية والاقتصادية بين المماليك وبلاد النوبة (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة الموصل: ١٩٨٠م)، ص٢٧.

Scanned by CamScanner

الملك رسله ليأتوا إليه ويصبحوا ضيوفه[1].

ويشير العمري إلى حاكم دنقلة في كتابه (التعريف) بأنه يتبع حاكم مصر المملوكي، ويقوم بإرسال ما اتفق عليه في معاهدة البقط كل عام إلى ذلك السلطان، وحينما يخاطب السلطان ذلك الحاكم في مكاتبة رسمية إذا كان قد أسلم يكتب إليه: «صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس الجليل، الكبير، الغازي، المجاهد المؤيد، الأوحد، العضد، مجد الإسلام، زين الأنام، فخر المجاهدين، عمدة الملوك والسلاطين»، أما إذا كانت الفترة التي كانت قد أُرسلت فيها الرسالة قبل تسلم حاكم مسلم لدنقلة؛ فإن أسلوب التخاطب يختلف[2]، فحينما يرسل السلطان رسالة إلى صاحب أمجرة النصراني فإن أسلوب التخاطب يختلف، إلا أن العمري يعود ليشير إلى أنه سمع أن هذا الحاكم أسلم على عهد العمري وهو يخفي إسلامه خوفاً على مكانته، كونه يحكم تسعاً وتسعين مملكة نصرانية، وسبع منها مسلمة، وكان يطيع السلطان المملوكي لحاجته إليه في إرسال مطران لكنيسة النوبة من بطريركية الإسكندرية، وإن ذلك المطران لن يعمل إلا بعد مصادقة السلطان المسلم على كتاب تعيينه[3].

ويمنح ملوك النوبة قبل إسلامهم لزوارهم من المسلمين هدايا تكون في غالبها عبيد أو جواري أو قطع قماش يُطلق عليها (دكاديك)، أما أهم الأطعمة والمزروعات المتوفرة في النوبة فهي الأسماك واللحوم والألبان، إلا أن الحبوب قليلة باستثناء الذرة، وأفخر أطعمتهم الثريد الذي يوضع على وجهه اللوبياء واللحم، ولسكان النوبة ولع بالغناء والطرب، وللملوك كلاب حراسة تتام على أسرّتهم[4].

وفيما يتعلق بالجزء الثاني من سودان وادي نهر النيل، وهو بلاد البجة، فلم يتطرق له العمري في كتابه (مسالك الأبصار)، إلا أنه تناول بعض تاريخه في كتابه (التعريف بالمصطلح الشريف)، إذ يشير إلى شيخ الحدارية[5] سمرة بن مالك[6]، فيقول: «هو ذو عدد جم وشوكة منكية، يغزو الحبشة وأمم السودان، ويأتي بالنهاب والسبايا، وله أثر محمود وفعل مأثور، وفد على السلطان وأكرم مثواه... ورسم المكاتبة إليه: السامي الأمير»[7].

ويعود العمري بعد ذلك ليصف لنا مملكة مالي التي يقول عنها: إنها «في جنوب نهاية الغرب، متصلة بالبحر المحيط، قاعدة الملك فيها مدينة بيتي، وهذه المملكة شديدة الحر، قشفة المعيشة، قليلة أنواع الأقوات، وأهلها طوال في غاية السواد، وتفلفل الشعور، وغالب طول أهلها من سوقهم لا من هياكل أبدانهم»[8].

ويتضح مما سبق الصورة الواضحة التي أوصلها

---

(١) العمري، مسالك الأبصار، (١٠٢/٤).

(٢) العمري، التعريف، ص٤٨.

(٣) العمري، المصدر نفسه، ص (٤٨-٤٩).

(٤) العمري، مسالك الأبصار، (١٠٣/٤).

(٥) الحدارية: وهم الحضارمة، تجار سواكن الذين جاؤوا من حضرموت في القرن السادس الميلادي، وهم في الأصل خليط من البجة والعرب، وحُرف اسمهم إلى الحدارية، وقد لعبوا دوراً مهماً في تاريخ بلاد البجة. انظر: يوسف فضل حسن، جذور العلاقات بين الثقافات الإفريقية والثقافة العربية، بحث منشور في المجلة العربية للثقافة (تونس: ١٩٨٢م)، ص١٧٧؛ جون لويس بوركهارت، رحلات بوركهارت إلى بلاد النوبة والسودان، (القاهرة: د/ت)، ص٢٤٨.

(٦) سمرة بن مالك: وهو أمير بني عامر العربان في صعيد مصر، ظهر في فترة حكم السلطان محمد بن قلاوون (٧٠٨- ٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤١م)، وقيل إنه من شيوخ بني عامر الذين وقفوا بوجه المملكة الحبشية المسيحية التي حاربت المسلمين. ينظر: ضرار صالح ضرار، هجرة القبائل العربية الى وادي النيل مصر والسودان، (القاهرة: ٢٠٠٨م)، ص (٤٢٥-٤٢٦).

(٧) العمري، التعريف، ص (١٠٨-١٠٩).

(٨) العمري، مسالك الأبصار، (١٠٧/٤).

Scanned by CamScanner

لنا العمري عن موقع مملكة مالي، وصفات سكانها، وكأنه قد زارها على الرغم من عدم قيامه بذلك، إلا أن مصادر معلوماته عنها كانت دقيقة وأمينة.

كما يصف مالي نقلاً عن الشيخ الدكالي: بأنها «مربعة، طولها أربعة أشهر وأزيد، وعرضها مثل ذلك، تقع جنوب مراكش ودواخل بر العدوة، جنوباً بغرب إلى المحيط، وطولها من تولي إلى طورا، وهي على المحيط، وجميعها مسكونة»، ويقع تحت حكم منسا سليمان بلاد مناجم الذهب المسماة «مغزارة التبر»، والتي أقنع سكانها الجميع أنهم في حالة دخولهم الإسلام فسوف يقل الذهب حتى ينتهي[1].

وحاكم مملكة مالي على عهد العمري هو منسا سليمان[2] أخو منسا موسى[3]، والمملكة في عهده واسعة، فضلاً عن مناطق جديدة ضمها إليها بعدما حارب حكامُها الوثنيين، وامتاز منسا سليمان بورعه وتقواه ودعمه للمذهب المالكي الذي استدعى علماءه للمجيء إلى بلاده، كما جلب المئات من كُتب المذهب وضمها إلى مكتبات بلاده، وكان يُطلق على منسا سليمان في مصر والحجاز «ملك التكرور» نسبةً إلى إحدى إمارات بلاده، ولهذا حينما يسمع منسا سليمان بلقبه هذا فإنه سيغضب؛ لأن مملكته أوسع بكثير من «التكرور»، فهي تضم: غانة، وزافون، وترنكا، وتكرور، وسنغانة، وبانبقوا، وزرنطابنا، وبيترا، ودومورا، وزاغا، وكابرا، وبراغوري، وكوكو، فضلاً عن قاعدة المملكة (العاصمة) «بيتي»، ليكتمل عدد الأقاليم أربعة عشر إقليماً[4].

وبسبب مكانة إقليم غانة، والذي كان مملكة متكاملة قبل أن تضمه مالي إليها، فإن حاكمها هو الوحيد من بين حكام أقاليم مملكة مالي يُطلق عليه لقب «ملك»، وهو يقوم كذلك مقام النائب عن ملك مالي، وفضلاً عن دخول جميع حكام الأقاليم الأربعة عشر تحت طاعة ملك مالي؛ فإن في شمال مالي قبائل من البربر يطيعون صاحب مالي، وهم: نيتصر ونيتغراس ومدوسة ولمتونة، كما كان في طاعته قومٌ من الكفار، منهم من يأكل لحوم البشر- كما يدعي العمري[5].

ويعود ابن فضل الله العمري ليعرض علينا شكل البناء في مملكة مالي، مشيراً إلى بناء جدران منازل المدينة من الطين وسقوفها التي تكون في أغلبها على شكل قباب وجملونات، وأرضها تراب رمل، «وشرب أهلها من ماء النيل- نهر النيجر- وآبار محتفرة، وجميع هذه البلاد مصخرة مجبلة، وجبالها ذوات أشجار برية مشتبكة غليظة السوق، إلى غايةٍ تكون منها الشجرة الواحدة يستظل بها خمسمائة فارس»[6]، وعلى الرغم من أن الأشجار في المنطقة تمتاز بضخامتها إلا أن عنصر المبالغة يبدو حاضراً.

ويستمر العمري في استعراض تاريخ مملكة مالي وحضارتها، مشيراً إلى مزروعاتها من الحبوب

---

(١) المصدر نفسه: (١٠٩/٤).

(٢) منسا سليمان: وهو حاكم مملكة مالي الإسلامية بعد وفاة ابن منسا موسى منسا مغا، ومنسا سليمان هو الرجل الذي التقاه الرحالة ابن بطوطة خلال زيارته لتلك البلاد في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. ينظر: الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا (الرباط: ١٩٨٢م)، (١٦٥/٢).

(٣) منسا موسى: هو موسى بن أبي بكر سالم التكروري، ملك التكرور، قدم حاجاً سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م ومر في طريقه إلى مصر، وكان معه كثيراً من الذهب، وقد حكم بلاده ٢٤ سنة، ازدهرت خلالها الأحوال في عهده. انظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، (١٥٤/٥-١٥٥).

(٤) العمري، مسالك الأبصار، (١٠٨/٤-١٠٩). وفي كتابه (التعريف) يشير العمري إلى أن حاكم مالي الذي أسماه «ملك التكرور» دون أن يحدد مَن هو يدعي النسب إلى عبد الله بن صالح بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لكنه يعود ليقول: إن ألقابه في المكاتبات السلطانية لا تشير إلى نسبه العلوي. ينظر: ص٤٥ من الكتاب.

(٥) العمري، مسالك الأبصار، (١١٠/٤).

(٦) نفسه، (١١١/٤).

Scanned by CamScanner

والفواكه والخضروات، وطريقة الزراعة المحصول وجنيه، وأنواع الحيوانات الموجودة في البلاد الأليفة منها والبرية[1]، ثم يتكلم عن سلطان البلاد وحاشيته ومجلسه وجيشه وتشكيلات ذلك الجيش وفرقه وملابسه في السلم والحرب، وكذلك قيام السلطان بحل مشكلات سكان بلاده بنفسه على الرغم من وجود القضاة وجلوسهم لحل المشكلات[2].

وينقل ابن أمير حاجب للعمري كل المعلومات التي تلقاها من منسا موسى عن مملكة مالي، فكانت تلك المعلومات منوعة، منها ما هو سياسي عن علاقة مملكة مالي بجيرانها المسلمين في مصر والمغرب، أو علاقتهم بالقبائل الوثنية المحيطة ببلادهم، كما شملت المعلومات أموراً تتعلق بمنسا موسى نفسه وحياته اليومية وتعامله مع شعبه، وأشار إلى كرم منسا موسى معه ومع كل من استقبله من المصريين، ووصف بشكل مفصل لقاء منسا موسى بالسلطان المملوكي محمد بن قلاوون ورفضه السجود بين يدي السلطان المملوكي قائلاً: «أنا مالكي المذهب، ولن أسجد لغير الله»[3].

ويسهب ابن فضل الله العمري نقلاً عن الأمير علي بن أمير حاجب، والذي بدوره نقل عن منسا موسى رحلة الحج الكبيرة والمسماة بـ«رحلة الحج الذهبية» لكثرة الذهب المحمول في قافلة الحج تلك، والذي تم توزيعه على العامة والخاصة في مصر، ويشير إلى كرم ذلك السلطان الإفريقي بقوله: «وكان كريماً جواداً كثير الصدقة والبر، خرج من بلده بمائة وسق جمل من الذهب، أنفقها في حجته على القبائل بطريقه من بلاده إلى مصر، ثم بمصر، ثم من مصر إلى الحجاز الشريف في التوجه والعود، حتى احتاج إلى القرض فاستدان على ذمته من التجار بمكاسب كثيرة وافرة جعلها لهم بحيث حصل لهم في ثلاثمائة دينار سبعمائة دينار ربحاً، ثم بعثها إليهم بالراجح، قال ابن أمير حاجب: وبعث لي خمسمائة مثقال ذهباً على سبيل الافتقاد...»[4].

وينقل العمري عن المهمندار أبي العباس أحمد بن الجاكي، والذي استقبل منسا موسى عند وصوله مصر قائلاً: «لما خرجت لملتقاه- أعني من جهة السلطان الأعظم الملك الناصر- أكرمني إكراماً بليغاً، وعاملني بأجمل الآداب، ولكنه كان لا يكلمني إلا بترجمان مع إجادة معرفته للتكلم باللسان العربي، ثم إنه قدم للخزانة السلطانية جُملاً كثيرة من الذهب المعدني الذي لم يصنع، وغير ذلك، وحاولته أن يطلع للقلعة ويجتمع بالسلطان فأبى عليّ وامتنع، وقال: أنا جئت لأحج لا لشيء آخر، وما أريد أن أخلط حجي بغيره»[5].

فضلاً عن ذلك؛ فقد تناول العمري مناطق تقع في شرق إفريقيا كبلاد الزنج التي تحدث عنها بشكل سريع جداً، لكنه ركز بشكل أوسع في ممالك المسلمين في الحبشة، فأشار في القسم الخاص ببلاد الحبشة إلى موقعها في بداية الأمر قائلاً: إن بحر الهند (المحيط الهندي) واليمن يحدانها من الشمال الشرقي، ومن الغرب بلاد التكرور[6]، إلا أنه لم يذكر ما يحيط بالحبشة من الشمال أو الجنوب.

---

(١) نفسه، (١١-١١٤).

(٢) نفسه، (٤/١١٤-١١٨).

(٣) العمري، مسالك الأبصار: (٤/١٢٠-١٢٤)، ويطلق عليها العمري في كتابه (التعريف) اسم: «بلاد التكرور». ينظر: ص٤٤.

(٤) نفسه، (٤/١٢١-١٢٢).

(٥) العمري، مسالك الأبصار، (٤/١٢٢).

(٦) بلاد التكرور: اسم أطلقه المؤرخون العرب على مملكة مالي، وهو في الواقع كما يذكره العمري أرض السودان الغربي والأوسط التي دخلها الإسلام، وأصبحت كلمة تكروري مرادفة لكلمة سوداني. للمزيد ينظر: زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، (بيروت: ١٩٦٠م)، ص٢٦.

Scanned by CamScanner

في حين يشير إلى وجود نهر يُسمى «سيحون» يجري في الحبشة ويزود النيل بالماء، وماؤه حلو غير مالح[1].

ويتضح لنا من خلال ما سبق: عدم مقدرة العمري على إعطاء التسميات الدقيقة للأماكن بسبب عدم زيارته للمنطقة، كما أن تحديده لمصطلح «الحبشة» جاء مخالفاً للحقيقة وغير دقيق قياساً بكل من عاصره أو سبقه من المؤرخين والجغرافيين المسلمين، والذين أكدوا أن ممالك المسلمين في الحبشة تشمل أكثر من ذلك، ويؤكد ذلك القلقشندي بقوله: «وأهمل المقر الشهابي ابن فضل الله في مسالك الأبصار عدة بلاد من ممالك الحبشة المسلمين، ومنها جزيرة دهلك، ومدينة عوان، ومدينة مقديشو»[2].

لقد وصف المؤلف طبيعة أرض الحبشة بالوعرة لكثرة جبالها العالية وارتفاع أشجارها وتشابكها مع بعضها، لدرجة أنه إذا ما خرج أحد ملوكها ليذهب إلى مكان ما يسبقه رجاله لفتح الطريق من خلال قطع الأشجار وحرقها[3]. أما مساحتها؛ فطولها في البر والبحر مسيرة شهرين[4]، وعرضها ممتد أكثر من ذلك إلا أنه مقفر. أما ما هو معمور من تلك الأراضي فيساوي ثلاثة وأربعين يوماً طولاً، وأربعين يوماً عرضاً[5].

كان للملاحظة وتحري المعلومات المنقولة إليه، من أولئك الذين التقى بهم، دور في أدوات بحثه

وبعد أن حدد العمري الموقع الجغرافي للمنطقة؛ يعود ليتكلم عن لغتها قائلاً: إن سكانها يجيدون الحبشية فضلاً عن اللغة العربية، لكنه يعود ليستدرك القول بأن لغاتهم متعددة وتصل إلى خمسين لساناً (لغة)[6]. وربما تكون اللغة الحبشية هي اللغة الجعزية[7]، والتي كانت تُستخدم

---

(١) العمري، مسالك الأبصار، (٨٥/٤). لكننا نعلم أن نهر سيحون يقع في بلاد ما وراء النهر وليس في الحبشة. وقيل إن النهر المسمى «الفردوس» ينقسم إلى أربعة رؤوس، هي: سيحون وفيشون ودجلة والفرات، وسيحون يحيط بأرض كوش الحبشة. ينظر: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، (بيروت: ١٩٩٥م)، ص١٣٦. وفي الحقيقة أن ذلك النهر ما هو إلا نهر النيل الأزرق أو أباي Abbay حسب ما يسميه الإثيوبيون، كما يسميه السكان هناك «رجيون» أو «جيحون» أو «جن». ينظر: محمد محفوظ عمر جويان، انتشار الإسلام في الحبشة– دراسة في التأثيرات السياسية والاقتصادية-، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (جامعة الموصل: ٢٠٠١م)، ص٢٨٧.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، (٣١٩/٥-٣٢٠).

(٣) العمري، مسالك الأبصار، (٦٩/٤).

(٤) مدة شهرين هنا بالمسير الاعتيادي، أي ستين يوماً، واليوم: هو وحدة استخدمها الكُتاب العرب المسلمون لحساب المسافة، ويساوي اليوم ثمانية فراسخ. يُنظر: عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر أبو الفدا، تقويم البلدان، (باريس: ١٨٤٠م)، ص٧٩. وبما أن الفرسخ يساوي ٦كم. يُنظر: فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمه عن الألمانية: كامل العسلي، (عمان: ١٩٧٠م)، ص (٩٤-٩٥). إذاً اليوم يساوي (٤٨كم). أي أن طول الممالك الإسلامية يساوي (٢٨٨٠كم).

(٥) العمري، مسالك الأبصار، (٦٣/٤).

(٦) العمري، مسالك الأبصار، (٨٥/٤).

(٧) اللغة الجعزية: وهي لغة عربية تعود إلى قبيلة الأجاعز اليمنية، والتي هاجرت قبل الإسلام إلى شرق إفريقيا، واستقرت في الهضبة الحبشية قرب مرتفعات إرتيريا، وأعطت لغتها تلك إلى سكان المنطقة لتصبح لغتهم الرسمية، كما أنها لا تزال لغة الكنيسة في إثيوبيا. ينظر: مجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشنتناوي، مادة حبش، (القاهرة: ١٩٧٣م): (٢٩٧/٣)؛ دريد عبد القادر نوري، تاريخ الإسلام في

Scanned by CamScanner

في الحبشة لوقت متأخر، فهي تُكتب كالعربية من اليمين إلى اليسار، إلا أنها تنفرد بكونها تتألف من ستة عشر حرفاً لكل سبعة فروع، ليكون مجموع حروفها مائة واثنين وثمانين حرفاً، فضلاً عن حروف أخرى مستقلة بذاتها[١].

ويبدو أن العمري عاد هنا مرّة أخرى ليعطينا أرقاماً خاطئة، فإذا ما ضربنا عدد الأحرف في الفروع فلن ينتج لنا ما توصل إليه المؤلف، كما أنه لم يوضح لنا هل اللغة الحبشية تتألف من الفروع السبعة أو هناك فروع أخرى؟!

وقبل خوض المؤلف في التفاصيل الاجتماعية والاقتصادية لتلك الممالك؛ أشار إلى أن سكانها كانوا على مذهب أبي حنيفة النعمان على عهده، سوى مملكة أوفات، التي اتبع سكانها المذهب الشافعي[٢]. ويبدو أن وصول المذهب الشافعي إلى مملكة أوفات كان بسبب قربها من مصر واختلاط أهلها مع المصريين وتأثرهم بمذهبهم. أما المذهب الحنفي، الذي تمسكت به بقية الممالك، فهو أيضاً أحد المذاهب المتبعة في مصر، وربما جاء من خلال الذهاب لتأدية فريضة الحج والاطلاع عليه والحصول على الكتب التي كُتبت عنه.

كما خصّص المؤلف مساحة واسعة للحديث عن النظام العسكري لتلك الممالك، مشيراً في بادئ الأمر إلى عدد الجُند وتسليحهم في كل مملكة، مبتدأ (بمملكة هدية) التي تمتلك أكبر عدد من الجند، إذ يبلغ عدد فرسانها نحو أربعين ألف فارس، أما المشاة فهم أكثر من ذلك بمرتين[٣]، في حين يصل عدد فرسان (مملكة بالي) إلى ثمانية عشر ألف فارس، والمشاة أكثر من ذلك[٤]، وعدد فرسان (مملكة دوارو) يزيد عن فرسان مملكة أوفات والبالغ خمسة عشر ألف رجل يتبعهم عشرون ألفاً أو يزيد من المشاة[٥]، ويعود ليذكر لنا عدد جند (مملكة أرابيني) قائلاً إنهم عشرة آلاف فارس، أما المشاة فكثير[٦]، وفي (مملكة شرحا) كان هناك ثلاثة آلاف فارس وضعف ذلك من المشاة، فيما يبلغ جند (مملكة داره) ألفي رجُل بين فارس وراجل[٧].

أما سلاح الجيش في تلك الممالك؛ فهو القِسيّ والنبال الشبيهة بالنُّشاب، والسيوف والمزاريع[٨] والحراب، أما التُّرس؛ فمنهم من يستخدم الترس الطويل، ومنهم من يرتدي أتراساً قصيرة. وهناك جزء آخر مكمل لتجهيزات الجيش وهو الأبواق، إذ يستخدم الجند أبواقاً مصنوعة من خشب القنا المجوّف ومن قرون البقر المجوّفة. وفيما يتعلق بالدواب التي يستخدمها الجند في القتال فهي الخيل، إذ يركبها أهل مملكة أوفات دون وضع السروج على ظهورها، بل يستبدلونها بوضع جلود مصنوعة من المِرعِز (كالصوف يستخلص من شعر العَنْز)، إلا أن استخدام البغال كان أكثر من الخيل في بقية الممالك[٩].

ويشير المؤلف في الوقت نفسه إلى قوة أولئك

إفريقيا جنوب الصحراء القرن (٥-١٠هـ/١١-١٦م)، (الموصل: ١٩٨٥م)، ص٦٠.

(١) العمري، مسالك الأبصار، (٨٥/٤).

(٢) العمري، المصدر نفسه، (٨٥/٤).

(٣) العمري، نفسه، (٨٦/٤).

(٤) العمري، نفسه، (٨٧/٤).

(٥) العمري، نفسه، (٨٨/٤).

(٦) العمري، نفسه، (٨٧/٤).

(٧) العمري، نفسه، (٨٨/٤).

(٨) المزاريع: وسماها المؤلف أيضاً في موقع آخر «المزاريق»، ومفردها مزراق، وهي رماح قصيرة يستخدمها مشاة الجيش، وهي أقصر طولاً من تلك التي يستخدمها الفرسان، وقد استخدمها الجيش العربي الإسلامي في مختلف أرجاء الدولة العربية الإسلامية، ومنها الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين. ينظر: محسن محمد حسين، الجيش المملوكي في عهد صلاح الدين، مؤسسة الرسالة، ط١، (بيروت: ١٩٨٦م)، ص٢٧٢.

(٩) العمري، مسالك الأبصار، (٨٧/٤).

Scanned by CamScanner

الجُند وشجاعتهم ورغبتهم في القتال، لدرجة أنهم لا يلبسون دروعاً أثناء القتال، ولا يُلبسون خيولهم السروج أو الدروع، كما أنهم ملتزمون بأخلاق الفارس، فهم على الرغم من شجاعتهم وقدرتهم على هزيمة أعدائهم فإنهم يصفحون عمن يؤذيهم إن أمكن ذلك، فكل من رمى سلاحه أثناء القتال يحرّمون قتاله[1].

وفي كتابه (التعريف) يسجل في فقرة (الكتب والعهود) دعوة بطريرك اليعاقبة لأتباعه في الجنوب- يقصد نصارى النوبة- بأن يميلوا إلى الحبشة ويبتعدوا عن السودان[2].

كما أشار العمري إلى اقتصاد ممالك المسلمين في بلاد الحبشة، مشيراً إلى مزروعاتهم وكل ما يتعلق بها، فضلاً عن تجارتهم وعملاتهم، فضلاً عن ذكره لمساكن السكان وملابسهم وعلاقتهم بالمملكة المسيحية في الحبشة، والتي كانت في عداء مستمر لتلك الممالك وتجاوزها عليهم، لولا مساندة المماليك في مصر لتلك الممالك[3].

الخاتمة:

في ختام المقال لابد من تثبيت بعض النتائج التي تم التوصل إليها، وهي:

١- جُل معلومات البكري اعتمدت على مصادره المتمثلة في أشخاص التقى بهم من خلال عمله في ديوان الإنشاء.

٢- وبناءً على ذلك؛ فلولا عمل العمري في ديوان الإنشاء لما حصلنا منه على أي معلومة عن بلاد السودان (إفريقيا جنوب الصحراء) كونه لم يقم بزيارة المنطقة مطلقاً.

٣- أبرز أدوات البحث لدى العمري كانت تتمثل بالمقابلات الشخصية، والتي حصلت بينه وبين مجموعة من التجار وموظفي الدولة في مصر، والذي بدورهم كانوا قد التقوا بمنسا موسى خلال رحلة حجه.

٤- كما كان للملاحظة وتحري المعلومات المنقولة إليه، من أولئك الذين التقى بهم، دور في أدوات بحثه.

٥- نطاق البحث لدى العمري كان يشمل كل منطقة إفريقيا جنوب الصحراء (بلاد السودان)، والتي كانت تُحاط بالصحراء الكبرى من جهة الشمال، فيما تحيط بها الغابات الاستوائية من جهة الجنوب، ومن الشرق البحر الأحمر والمحيط الهندي، فيما يحيط بها من جهة الغرب المحيط الأطلسي.

٦- فيما ركز النطاق الزمني لما كتبه العمري على الأحداث التاريخية المعاصرة له، أو تلك السابقة بقليل، فهو لم يرجع إلى معلومات تعود إلى العصور القديمة.

٧- لم يخض العمري في مسألة تبناها بعض المؤرخين، والتي تتعلق بأصل السودان وسبب اسوداد بشرتهم وربطها بالنبي لوط- عليه السلام، كما فعل الاصطخري وابن حوقل وابن سعيد المغربي وابن خلدون، وغيرهم الكثير.

٨- لو قُدّر للعمري أن يقوم بزيارة المنطقة لكانت المعلومات التي سيسجلها أكبر مما ظهر لنا في مؤلفاته.

٩- على الرغم من عدم زيارته لها فإن القيمة العلمية لما كتبه كبيرة، كونه الوحيد الذي شملت تدويناته مناطق تقع في الشرق كالحبشة وسودان وادي النيل (البجة والنوبة)، وزودنا بمعلومات قيمة، فهو أول من فصّل في تاريخ الممالك الإسلامية في الحبشة وعلاقتها بالمملكة المسيحية هناك ■

---

(١) العمري، المصدر نفسه، (٨٦/٤).

(٢) العمري، التعريف، ص١٨٥.

(٣) العمري، مسالك الأبصار، (٨٥/٤).

Scanned by CamScanner